الفصل الأول: الشعر المفقود

بسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

"وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُور"

آيةٍ من آيات تُتلى في المستشفيات، حيث يمكنك أن تسمع الدعاء الصادق، والتوسل الحقيقي بالله، والإيمان النقي، حين تتجرد الأجساد من زينتها، وتتساقط الأماني كأوراق الخريف.

كانت المرآة في غرفة المستشفى صافيةً بلا عيب، تعكس وجهها بدقةٍ لا ترحم. رأتْ سُهَى نفسها فيه، فرأتْ ما كانت تخشاه منذ أسابيع: خصلاتُ الشعر التي كانت تتهادى على كتفيها كظلالِ المساء باتت تتساقط بغدرٍ كلما مرّت بمشطها على رأسها. كانت تمسك اليوم بخصلةٍ بين أصابعها، تنظر إليها كأنها وداعٌ أخير.

"لا بأس"، همست لنفسها بصوتٍ لم تخفِ فيه ارتعاشةً خفيفة. "الشعرُ يعود. هذا ما يقوله الأطباء. سيعود".

لكنها لم تصدق. ولم تكن تصدق منذ اللحظة التي سمعت فيها كلمة "سرطان" تخرج من فم الطبيب كأنها حجرٌ يُلقى في مياهٍ راكدة. تذكرت كيف كانت الغرفة تموج بأضواءٍ باهتة، وكيف كانت نُور، الممرضة الشابة، تمسك بيدها بقوةٍ وهي تهمس: "ستتجاوزين هذا، سُهَى. أنتِ قوية".

وكانت سُهَى تبتسم. كانت طوال عمرها تبتسم، حتى حين كانت تشعر بأن الدنيا تضيق بها. الابتسامة درعها، والشعر تاجها. أما اليوم، فكان التاج يتساقط.

خرجت من المستشفى بعد جلسة العلاج الكيماوي، وقد ثقلت خطاها كأنها تحمل جسداً ليس جسدها. انتظرتها نُهَى في الردهة، تحمل حقيبةً صغيرة ومعطفاً رمادياً، وقد بدا على وجهها ذلك التعبُ الذي تخفيه دائماً خلف ابتسامةٍ أموميةٍ متعبة.

"كيف شعرتِ اليوم؟"، سألت نُهَى، وهي تضع يدها على ظهر أختها لتقودها نحو السيارة.

"مثلما أشعر كل يوم، يا نُهَى. كأنني أسبح في بحرٍ من الزجاج المكسور".

ضحكت نُهَى ضحكةً قصيرة، تلك الضحكة التي اعتادت إطلاقها كلما شعرت بأن الكلمات قد تصبح ثقيلةً أكثر مما تحتمل.

"حسناً، لدي شيءٌ قد يغير مزاجك. لكن في البيت".

رفعت سُهَى حاجبها بتعب، لكنها لم تسأل. كانت تعرف أختها منذ الطفولة؛ إذا كانت نُهَى تعد بشيء، فهي تفيه. وحين لا تفيه، يكون السبب أن الحياة لم تمنحها الفرصة.

وصلتا إلى الشقة في حيّ هادئ، حيث تتشابك أصوات العصافير مع أذان المغرب البعيد. كانت الشقة صغيرةً لكنها دافئة، تفوح منها رائحة البهارات والقهوة التي لم تُشرب بعد. ساعدت نُهَى أختها على خلع معطفها، ثم قادتها إلى غرفة الجلوس حيث أشارت إليها أن تجلس على الأريكة المخملية الزرقاء التي كانت تعود لأمهما.

"أغمضي عينيكِ"، قالت نُهَى بصوتٍ مسرحيّ حاولت أن تخفي فيه قلقها.

"نُهَى، أنا متعبة جداً"...

"أغمضيهما فقط. للحظة".

أطاعت سُهَى، وأحست بيدي أختها تضع شيئاً خفيفاً على رأسها. فتحت عينيها، ونظرت في المرآة الصغيرة التي وضعتها نُهَى أمامها.

كانت باروكةٌ من شعرٍ طويلٍ أسودَ كالليل، كثيفٍ، يتساقط على كتفيها وكأنه لم يفارقها أبداً. لمستها بأصابعها المرتجفة، وشعرت بالملمس الناعم، وكأنه شعر حقيقي. وكأنه روحٌ حية.

"من أين...؟"، همست سُهَى، وعيناها تلمعان لأول مرة منذ أشهر.

"اشتريتها من متجرٍ صغيرٍ في شارع النجمة. الرجل قال إنها باروكةٌ طبيعية، من شعرِ امرأةٍ غجرية. قال إنها ثمينة، لكنني أخذتها لكِ".

قالتها نُهَى ببساطة، وكأنها تشتري خبزاً من الفرن، لكن سُهَى عرفت أن أختها أنفقت من مدخراتها، تلك المدخرات التي كانت تجمعها لسفرٍ طالما حلمت به.

لم تقل سُهَى شيئاً. اكتفت بأن التفتت نحو المرآة الصغيرة، ونظرت إلى انعكاسها. للمرة الأولى منذ شهور، لم تشعر بأنها مريضة. شعرت بأنها امرأةٌ جميلةٌ تستحق الحياة.

في تلك الليلة، نامت سُهَى باكراً، والباروكة موضوعةٌ على الطاولة بجانب سريرها، كتاجٍ ملكيٍّ ينتظر صباحاً جديداً. لكنها لم تنمْ طويلاً. في منتصف الليل، استيقظت على شعورٍ غريب، كأن أحداً يلمس فروة رأسها. فتحت عينيها بتثاقل في الظلام، ونظرت نحو الطاولة. كانت الباروكة في مكانها، ساكنةً كالجبل، لكنها كانت تراها – أو هكذا خيل لها – تتحرك قليلاً، كأن نسمةً عابرة مرت عليها.

أغمضت عينيها بقوة، ثم فتحتهما مجدداً. لا شيء. مجرد وهنٍ من التعب، أو تأثيرٍ من الأدوية. ضحكت في نفسها من سخافة خوفها.

"حتى الباروكات تخيفني الآن"، تمتمت، ثم قلبت وسادتها ونامت من جديد.

لكنها لم ترَ، في ظلام الغرفة، تلك اللمحة الخاطفة التي مرت على سطح الباروكة كوميضِ عينٍ مفتوحةٍ للحظة ثم أغلقت. لم ترَ كيف تموج الشعرُ كأنه يتنفس. لأنها كانت نائمةً بالفعل.

.....

الفصل الثاني: مرآة جديدة

استيقظت سُهَى على شعاعٍ من الضوء الخريفي يتسلل من بين ستائر الغرفة البيضاء، كأنه خيطٌ من ذهبٍ يحاول أن يلمس جبينها. كان الصباح مختلفاً هذه المرة. لم تستيقظ على طعم الدواء المر في فمها، ولا على ثقل الألم في عظامها، بل على شيءٍ أشبه بالفضول.

تذكرت الباروكة قبل أن تفتح عينيها. تذكرت ملمسها الناعم على أطراف أصابعها، وكيف جعلتها تشعر بأنها امرأةٌ جديدة.

انطلقت من سريرها بخفةٍ لم تشعر بها منذ أشهر، وتوجهت نحو الطاولة الصغيرة التي وضعت عليها الباروكة ليلة أمس. كانت هناك، ساكنةً كنهر المتجمد، شعرها الأسود يتلألأ تحت ضوء الصباح كأنه منسوج من الحرير والليل معاً.

رفعتها برفق، وشعرت بوزنها الخفيف على كفيها. كانت أبرد مما توقعت، وكأنها قضت الليل في ثلاجة، لكنها لم تلقِ بالا لذلك. كانت عيناها تبحثان عن المرآة.

وقفت أمام المرآة الكبيرة المعلقة على جدار غرفتها، تلك المرآة التي كانت تتجنبها في الأشهر الماضية لأنها كانت تُريها وجهها الشاحب وشعرها المتساقط. لكن اليوم، ارتدت الباروكة ببطء، كأنها تتوج نفسها ملكة، ثم رفعت نظرها إلى الانعكاس.

توقفت أنفاسها.

المرأة التي رأتها في المرآة لم تكن سُهَى المريضة، ولا سُهَى الخائفة، ولا سُهَى التي كانت تبكي في الحمام كل صباح وهي تشاهد خصلات شعرها تتساقط كأوراق الخريف. كانت امرأةً أخرى. امرأةً ذات شعرٍ كثيفٍ أسودَ ينسدل على كتفيها كعباءة ملكية، وبشرةٍ صافيةٍ تشرق كالقمر، وعينين لامعتين كأنهما رأتا الحياة لأول مرة.

رفعت يدها المرتجفة إلى خدها، وتبعتها اليد في المرآة كأنها طيفٌ مطيع. شعرت بحرارتها، وتأكدت أن هذا الجسد هو جسدها .لكنها لم تستطع التوقف عن التحديق في ذلك الوجه الجديد الذي يبدو وكأنه يخص امرأةً أخرى.

همست لنفسها: "هل هذا أنا؟"

لكنها لم تسمع همسها. لأن صوتاً آخر – خافتاً جداً، كأنه قادم من بعيد – همس بشيءٍ لم تفهمه، كأنه اسمٌ ليس اسمها، كأنه كلمةٌ من لغةٍ لا تعرفها.

التفتت سُهَى بسرعة نحو الباب، ظناً أن نُهَى نادتها، لكن الباب كان مغلقاً، والغرفة فارغة. عادت تنظر إلى المرآة، وقلبها يخفق بسرعةٍ غير مبررة.

ثم رأته.

وجهٌ آخر، خلف وجهها في المرآة.

لم تره بوضوح. كان أشبه بظلٍّ عابر، كأنه انعكاسُ امرأةٍ تقف خلفها، لكنها كانت تقف وحدها في الغرفة. كان الوجه طيفياً، أبيض كالصبح، وعيناه داكنتان كالجحيم. تبتسم ابتسامةٌ صغيرة، كأنها تقول: "ها أنا ذا".

صرخت سُهَى صرخةً قصيرةً مكتومة، وتراجعت خطوةً إلى الوراء، فارتطمت بطاولة الزينة التي سقطت منها بعض الأشياء على الأرض، لتصدر أصوات سقوط مدوية.

فتح الباب في الحال، ودخلت نُهَى مسرعة، عيناها مذعورتان، وعليها رداء النوم الأزرق الذي كانت ترتديه دوماً.

"سُهَى! ماذا بكِ؟"!

تنفسَت سُهَى بعمق، ونظرت إلى المرآة من جديد. كانت خاليةً إلا من انعكاسها هي، وحيدةً خائفةً بشعرٍ أسودَ كثيف.

"لا شيء..."، تمتمت، وهي تبتسم تلك الابتسامة التي كانت تتقنها لإخفاء ما بداخلها. "تعثرت بطاولة الزينة. لا شيء، يا نُهَى".

نظرت نُهَى إليها بشكٍّ واضح، ثم نظرت إلى المرآة، ثم إلى الباروكة التي تتوج رأس أختها. ابتسمت ابتسامةً خافتةً مليئة بالدهشة.

"يا للروعة، سُهَى! تبدين... تبدين جميلةً كالقمر".

"جميلة كالقمر"، كررت سُهَى، وهي تبتسم ابتسامةً أوسع، في محاولةٍ لإقناع نفسها بأن ما رأته كان مجرد لعبة الضوء، أو انعكاس لظل، أو وهم العيون المتعبة.

لكنها لم تنسَ الهمس. ولم تنسَ الوجه الطيفي. ولم تنسَ اسماً لم تسمعه لكنها شعرت به في أعماقها :**جَوَاهِر**.

خرجت سُهَى من الشقة بعد ساعة، وقد ارتدت معطفاً أسودَ طويلاً ووشاحاً حريرياً أحمر، وبدت كأنها عائدة من رحلةٍ إلى عالمٍ آخر. كانت تريد أن تشعر بأنها طبيعية، أن تتنفس هواء الخريف الذي لم تتنفسه منذ شهور، وأن ترى الناس من دون أن يحدقوا في صلعها أو يشفقوا عليها.

لم تذهب بعيداً. نزلت إلى الطابق السفلي حيث تعيش الجارة آمال، تلك المرأة الخمسينية التي كانت تعرفها نُهَى منذ سنوات، والتي كانت دوماً تملأ البهو بأصوات ضحكاتها وأحاديثها المحببة.

طرقت الباب برفق، وسمعت صوت آمال من الداخل وهي تقول: "ثواني ثواني، أنا قادمة!" ثم فتحت الباب واتسعت عيناها.

"يا سلام! سُهَى! انتِ؟"

غمرتها بعناق حار، وراحت آمال ترفع يديها إلى السماء كأنها تشهد معجزة. "من أين هذا الشعر؟! متى أصبحتِ هكذا؟!

ضحكت سُهَى ضحكةً خجولة، وشعرت للمرة الأولى منذ زمن أن الضحكة تأتي من قلبها وليس من شفتيها فقط. "باروكة، يا خالة آمال. اشترتها لي نُهَى".

"باروكة؟ هذه باروكة؟!" اقتربت آمال منها، ومدت يدها لتلمس الشعر بحذر، كمن يلمس حريراً ثميناً. "لا أصدق! والله إنه شعرٌ حقيقي. أين وجدت نُهَى هذا الجمال؟ إنه كشعر العرائس... كشعر الجواري في القصور القديمة... ما شاء الله"!

دخلت سُهَى إلى شقة آمال التي كانت تفوح برائحة الهيل والقهوة، وجلست على الأريكة القديمة المغطاة بمطرزات يدوية، وأخذت تتحدث مع جارتها التي ظلت تمدح الباروكة وتتساءل عن مصدرها. وشعرت سُهَى بأنها تنسى للحظات أنها مريضة، وأن حياتها أصبحت مجرد مواعيد علاجية وأوجاع متكررة.

لكن في لحظة ما، بينما كانت آمال تحتسي قهوتها وتتحدث عن ابنتها التي ستتزوج قريباً، لمست سُهَى شعرها. شعرت بشيءٍ غريب. شعرت بأن خصلةً من الباروكة قد تحركت وحدها، كأن إصبعاً غير مرئياً قد لمسها.

نظرت إلى آمال. لكن آمال لم تكن تنظر إليها. كانت مشغولة بحديثها. نظرت سُهَى إلى خصلات الشعر التي كانت تغطي كتفيها. كانت ساكنة، طبيعية، لا حركة فيها.

تنفست الصعداء. "مجرد وهم آخر"، قالت في نفسها. "سأعتاد عليه".

عادت سُهَى إلى الشقة في الظهيرة، ووجدت نُهَى تعدُّ حساءً في المطبخ. وقفت على عتبة المطبخ، ونظرت إلى أختها، وفجأةً شعرت بحاجةٍ ماسة إلى أن تخبرها بما رأته في المرآة، وبما سمعته من همس، وبذلك الاسم الغريب الذي خطر ببالها من دون سبب.

"نُهَى"...

"نعم، يا حبيبتي؟"

"هل سبق أن... هل شعرتِ يوماً بأن هناك من يراقبكِ؟ شخصاً لا ترينه، لكنكِ تشعرين بحضوره؟"

وقفت نُهَى ممسكةً بملعقة الحساء، ونظرت إلى أختها بنظرةٍ تخلط بين القلق والفضول. "ماذا تقصدين، سُهَى؟"

"لا شيء..."، تراجعت سُهَى بسرعة، خائفةً من أن تبدو مجنونة. "ربما آثار الأدوية. سأستلقي قليلاً".

وهربت إلى غرفتها، تاركةً نُهَى واقفةً في المطبخ، تنظر ورائها بقلقٍ بدأ يتسلل إلى قلبها.

في الغرفة، جلست سُهَى أمام المرآة مرة أخرى، ونظرت إلى وجهها، إلى شعرها الأسود، إلى عينيها التي بدت أكثر لمعاناً مما كانت عليه في الصباح.

ابتسمت لنفسها. وقالت بصوتٍ هامس: "أنت جميلة، سُهَى. أنت جميلة".

لكن المرآة لم تعكس ابتسامتها وحدها. عكست، للحظةٍ خاطفة، ابتسامةً أخرى، أوسع وأكثر ظلاماً.

وسمعت سُهَى الهمس مرة أخرى. هذه المرة، كان واضحاً كأنه في أذنها:

"لستِ وحدكِ".

.....

الفصل الثالث: الأحلام الأولى

مرت الأيام كالرياح الخريفية، سريعةً وباردة، تحمل معها أوراقاً صفراء ووعوداً لم تُقطع بعد. كانت سُهَى ترتدي الباروكة طوال الوقت، حتى في نومها. تشبثت بها كطفلٍ يتمسك بدميته، كغريقٍ يتعلق بقشّة. صارت تنام وهي تلمس أطراف شعرها، وتستيقظ على وقع نبضها وهي تبحث عنه على وسادتها، كأنها تخشى أن يهرب منها في الليل.

لكن الليل، كما تعلم سُهَى، كان يخبئ أكثر مما تظن.

الليلة الأولى

نامت سُهَى باكراً، وقد شعرت بإرهاقٍ شديد بعد يومٍ طويل من العلاج. وكانت الباروكة على رأسها، كعادتها. ولم تلبث أن غاصت في نومٍ عميق، ثقيل كالرصاص.

في حلمها، كانت تمشي في زقاقٍ ضيقٍ قديم، جدرانه مطلية بالجير الأبيض المتقشر، وأرضيته مرصوفة بالحجارة الملساء التي لمعت تحت ضوء القمر. كانت ترتدي فستاناً طويلاً أبيضَ كالكفن، وقدمها حافية تشعر ببرودة الحجارة. في يدها شمعةٌ صغيرة، لهبها يرتجف كقلب خائف.

سمعت بكاءً من بعيد. بكاء امرأة، يتصاعد وينخفض كموجات البحر، مملوء بالحسرة والغضب. مشت سُهَى نحو الصوت، حتى وصلت إلى بابٍ خشبيّ قديم، منقوش عليه زخارف غريبة لا تعرفها. فتحته بيدٍ مرتجفة.

رأت امرأة تجلس في زاوية الغرفة، ظهرها إليها، وشعرها الأسود الطويل ينسدل على كتفيها كأنه شلالٌ من الظلام. كانت تبكي بصوتٍ مكتوم، تهز كتفيها كطفلةٍ تتوسل. همست سُهَى بصوتٍ خائف: "من أنتِ؟"

التفتت المرأة ببطء.

لكن سُهَى لم ترَ وجهاً. كل ما رأته كان ظلاماً، ظلاماً كثيفاً كالحبر، وسماءً حمراءً تطل من نافذة خلفها.

وسمعت صوتها يهمس باسم ليس اسمها، بل بإسم آخر.

"جَوَاهِر... جَوَاهِر"...

صرخت سُهَى في الحلم، لكن الصوت لم يخرج من حلقها. ظلت تصرخ صامتةً كالسمكة خارج الماء، حتى استيقظت فجأة على صراخها الحقيقي الذي ملأ الغرفة.

جلست على سريرها، تتلهث، تتعرق، وقلبها يكاد يقفز من صدرها. نظرت حولها في الغرفة المظلمة، ولم ترَ شيئاً سوى الأثاث المعتاد وظلاله الطويلة على الجدران. ثم رفعت يدها إلى رأسها، ولمست الباروكة.

كانت ساكنةً، باردةً، كأنها لم تتحرك قط. لكنها شعرت، للحظة، بأن خصلاتها كانت تتحرك قبل أن تستيقظ. شعرت بأن أحداً كان يهمس في أذنها، وأن الأصابع كانت تمر خلال شعرها برفقٍ محب.

مدت يدها إلى جانب السرير، وأشعلت المصباح الصغير. ضوءٌ أصفر خافت غمر الغرفة، وكشف عن مرآتها على الحائط المقابل. نظرت إليها، ورأت وجهها الشاحب، وعينيها المذعورتين، وشعرها الأسود الذي بدا كأنه حيٌّ في الضوء الخافت.

"مجرد حلم"، همست بصوتٍ مبحوح. "مجرد حلم يا سُهَى. اهدئي".

لكنها لم تستطع النوم مجدداً حتى الفجر. جلست على سريرها، تحدق في المرآة، تنتظر أن ترى شيئاً لا تريده، لكن المرآة كانت صامتةً وهادئةً كالماء الراكد.

الليلة الثانية

لم تخبر سُهَى نُهَى بما رأته. كانت تخشى أن تبدو بعني اختها مجنونةً، أو أن تخيف أختها التي كانت تضحي بكل شيء من أجلها. اكتفت بأن قالت: "أحلام غريبة بسبب الأدوية." وابتسمت ابتسامتها الواهية التي لم تخدع نُهَى هذه المرة، لكن نُهَى اختارت أن تصدق، اختارت ألا تضغط عليها.

نامت سُهَى في الليلة التالية، وهذه المرة رأت المرأة نفسها، لكنها كانت واقفةً هذه المرة، تقف أمام نافذةٍ تطل على بحرٍ هائج، وشعرها يتطاير كالأفاعي في الريح. كانت تهمس بشيءٍ لا تفهمه سُهَى، كأنها تقرأ دعاءً قديماً، أو تنطق تعويذةً من لغةٍ لم تسمع بها.

ثم التفتت المرأة ببطء، وهذه المرة، رأت سُهَى جزءاً من وجهها. رأت عيناً واحدةً فقط، عيناً سوداءً كالفحم، تدمع دموعاً سوداء كالحبر، وابتسامةً عريضةً كالقمر في ليلةٍ مظلمة.

ابتسمت المرأة، ومدت يدها نحو سُهَى، وقالت بصوتٍ عميقٍ غريب:

"تعالي... تعالي إليّ... جَوَاهِر تنتظركِ".

استيقظت سُهَى على صرخةٍ أخرى، وهذه المرة كانت نُهَى عند بابها قبل أن تفتح عينيها.

"سُهَى! سُهَى، ما بكِ؟"!

اقتحمت نُهَى الغرفة، وأشعلت الضوء، وجلست بجانب أختها على السرير، تمسك بيديها المرتجفتين، تنظر في عينيها المذعورتين.

"أحلام... أحلامٌ غريبة"، تمكنت سُهَى من النطق بصوتٍ يرتجف. "لا تقلقي، يا نُهَى. مجرد أحلام".

لكن نُهَى لم تكن مطمئنة. نظرت إلى الباروكة التي ما زالت على رأس سُهَى، وإلى الوسادة التي كانت مبللةً بالعرق، وإلى عيني أختها التي بدت وكأنها رأت الموت.

"سُهَى، حبيبتي... هل أنتِ متأكدةٌ أنكِ بخير؟ هل تريدين أن تخلعي الباروكة الليلة؟ ربما لو نمتِ من دونها"...

"لا!" صاحت سُهَى بقوةٍ لم تكن متوقعة، حتى أنها هي نفسها فوجئت بها. "أعني... لا، لا أريد خلعها. أشعر بأنها... تحميني. لا أعرف كيف أشرح، لكنها تجعلني أشعر بأنني لستُ وحدي".

نظرت نُهَى إليها، وقلبها ينقبض. لم تكن تعرف كيف ترد. لم تكن تعرف إن كان هذا هو المرض، أم الدواء، أم شيئاً آخر لا تستطيع فهمه.

"حسناً، حبيبتي. لا تخلعيها إن كنتِ لا تريدين. لكن... إذا احتجتِ شيئاً، أنا هنا. دوماً".

خرجت نُهَى من الغرفة، لكنها لم تغمض عينيها تلك الليلة. جلست في غرفة الجلوس، تشرب كوباً من الشاي البارد، وتفكر في كلمات أختها: "تجعلني أشعر بأنني لستُ وحدي".

لم تعجبها هذه الكلمات. لم تعجبها أبداً.

الليلة الثالثة

في الليلة الثالثة، لم تحلم سُهَى بالمرأة وحدها. حلمت بنفسها. رأت نفسها في الحلم واقفةً أمام المرآة، ترتدي الباروكة، لكن وجهها في انعكاس المرآة كان يتغير. كان يصبح أكثر شحوباً، ثم أكثر سواداً، ثم يتحول إلى وجه المرأة التي كانت تراها في أحلامها. شعرت بأن روحها تخرج منها، كأن أحداً يسحبها من صدرها، وهمسٌ في أذنها يقول:

"لن تموتي، سُهَى. أنا سأحيا فيكِ".

استيقظت سُهَى باكيةً، لكنها هذه المرة لم تصرخ. جلست على سريرها في صمتٍ مطبق، تنظر إلى المرآة، وترى دموعها تسيل على خديها وتختلط بشعر الباروكة الأسود. لمست شعرها، وشعرت بأنه دافئٌ هذه المرة. دافئٌ كجسد حي.

همست بصوتٍ خافت: "من أنتِ؟ ماذا تريدين مني؟"

لكن الصمت كان جوابها.

في تلك اللحظة، مرت ريحٌ باردة من تحت الباب، واهتزت ستائر الغرفة الخفيفة كأن يداً غير مرئية قد لامستها. وانبعثت رائحةٌ غريبة في الغرفة، رائحة عطرٍ قديم، وخشبٍ متعفن، وورودٍ ذابلة.

تنفست سُهَى هذه الرائحة، وشعرت بأنها تعرفها من مكانٍ ما، من زمنٍ بعيد، من حياةٍ لم تعشها.

وأغمضت عينيها، وسمعت الهمس يتكرر، لكنه هذه المرة لم يخيفها. شعرت بأنها بدأت تعتاد عليه، كمن يعتاد على صوت المطر بعد ليالٍ من العواصف.

ونامت من جديد، وهذه المرة لم تحلم بشيء. فقط ظلامٌ هادئ، ورائحة عطرٍ قديم يلازمها كظلٍّ يأبى أن يغادر.

في الصباح

دخلت نُهَى غرفة سُهَى، لتجد أختها جالسةً على السرير، تنظر من النافذة إلى المدينة التي تستيقظ تحت ضباب الخريف. كانت الباروكة على رأسها، وقد بدت جميلةً كعادتها، لكن عينيها كانتا تحملان شيئاً جديداً. شيئاً لم تره نُهَى من قبل: هدوءاً غريب، كأنها تقبلت شيئاً ما، أو كأنها استسلمت له.

"كيف نمتِ الليلة؟" سألت نُهَى بحذر.

"نمتُ جيداً"، قالت سُهَى بصوتٍ هادئ. "أفضل من الليالي الماضية. لم أعد أخاف".

"ألم تحلمي؟"

"لا. لا أتذكر".

لكن سُهَى كانت تكذب. كانت تتذكر كل شيء. كانت تتذكر الهمس، والمرآة، والعطر، والمرأة التي تناديها بإسم لا تعرفه. لكنها اختارت ألا تخبر أختها. اختارت أن تحتفظ بهذا السر، كأنه صديقٌ جديد، أو حبيبٌ يزورها في الليل.

نهضت من سريرها، وتوجهت إلى المرآة، ونظرت إلى وجهها. ابتسمت لنفسها، لكن الابتسامة لم تكن ابتسامتها تماماً. كانت ابتسامةً أوسع قليلاً، وأكثر غموضاً، كأن شفتيها تتعلمان شيئاً جديداً.

وفي المرآة، للحظة خاطفة، رأت ظلاً خلفها. امرأة ذات شعرٍ أسود، وعينين سوداوين، تبتسم لها من خلف كتفها.

لم تخف سُهَى هذه المرة. فقط نظرت إلى الظل وقالت بهمسٍ:

"مرحباً".

وهمس الظل في أذنها:

"مرحباً، جَوَاهِر."

لو سمعت نُهَى همس أختها في الصباح، لكانت عرفت أن شراً ما قد بدأ يتسلل إلى روحها. لكنها كانت مشغولةً بإعداد الإفطار.

.....

الفصل الرابع: بصمة الغريبة

مر أسبوع على تلك الليلة التي همست فيها سُهَى بـ"مرحباً" للظل في المرآة. وكانت الأيام التالية هادئةً بشكلٍ غريب، كهدوء البحر قبل العاصفة. نامت سُهَى دون كوابيس، واستيقظت باكرةً، وأكلت طعامها بشهيةٍ لم تكن تعرفها منذ شهور. شعرت نُهَى بالارتياح في البداية، ثم بالقلق بعد ذلك. كان هذا الهدوء غير طبيعي، كأن أختها تتعلم شيئاً جديداً، أو تتحضر لشيءٍ لا تعرفه.

لكن القلق الحقيقي لم يبدأ حتى ذلك الصباح الماطر، حين دخلت نُهَى غرفة سُهَى لتجدها جالسةً على المكتب الصغير بجانب النافذة، ممسكةً بقلمٍ في يدها، ودفتراً مفتوحاً أمامها. كانت تكتب بسرعة جنونية، وكأنها تملي على نفسها شيئاً، أو كأن أحداً يهمس في أذنها بما تكتب.

"سُهَى، ماذا تكتبين؟" سألت نُهَى بصوتٍ خفيف، مقتربةً منها.

رفعت سُهَى رأسها ببطء، ونظرت إلى أختها بعينين غائمتين، كأنها استيقظت من غيبوبة طويلة. "لا أعرف"، قالت بصوتٍ مبحوح. "إنها تأتي وحدها. الكلمات".

اقتربت نُهَى أكثر، ونظرت إلى الدفتر. كان مكتوباً فيه سطورٌ بخطٍ غريب، ليس خط سُهَى المعتاد. كان الخط أكثر انحناءً وجمالاً، كخط في مخطوطات قديمة، وكأن يداً أخرى هي التي كتبته. قرأت نُهَى بضع كلمات، وشعرت بقشعريرة تسري في ظهرها:

"جَوَاهِر... يا جَوَاهِر... لماذا تركتِ النافذة مفتوحة؟"

"القصر القديم يبكي في الليل... والريح تحمل أصواتاً لا يسمعها إلا الموتى".

"يدي تحترق... لكن الشعر يبقى".

أغلقت نُهَى الدفتر فجأة، ونظرت إلى أختها بذعر. "سُهَى... من جَوَاهِر؟ ماذا تعني هذه الكلمات؟"

هزت سُهَى كتفيها بلامبالاة: "لا أعرف. الكلمات تأتيني وأنا نائمة. ربما... ربما هي جزء من أحلامي".

"أحلامك؟ سُهَى، هذه ليست أحلاماً. هذه كتابةٌ بخطٍ ليس خطك. هذه كلماتٌ عن قصرٍ قديمٍ ونافذةٍ مفتوحة وامرأة اسمها جَوَاهِر. من هي جَوَاهِر؟"

نظرت سُهَى إلى أختها للحظة، ثم ابتسمت ابتسامةً غامضة، تلك الابتسامة التي كانت تتعلمها مؤخراً، والتي لم تكن تشبه ابتسامتها القديمة. "ربما هي أنا"، قالت بهدوء. "ربما كنتُ جَوَاهِر في حياةٍ أخرى".

تجمدت نُهَى في مكانها. شعرت بأن قلبها يتوقف للحظة، ثم ينبض بسرعةٍ جنونية. "لا تمزحي بهذا، سُهَى. أنتِ مريضة، وأنتِ تتناولين أدويةً قوية، وهذا طبيعي أن يسبب لكِ أحلاماً غريبة، لكن... هذه الكتابة... هذا ليس طبيعياً".

قفزت سُهَى من مكانها فجأة، ونظرت إلى أختها بعينين غاضبتين. "لماذا تحاولين دائماً أن تجعليني أبدو مجنونة؟! أنا لستُ مجنونة! أنا فقط... أرى أشياء لا ترينها. أسمع أشياء لا تسمعينها. هذا لا يجعلني مجنونة"!

ثم هدأ غضبها فجأة، كما لو أن يداً غير مرئية قد لامست كتفها وأخمدت نيرانها. جلست مجدداً، ونظرت من النافذة إلى المطر الخفيف، وقالت بصوتٍ بعيد: "اتركيني وحدي يا نُهَى. لا تخافي عليّ. أنا بخير".

خرجت نُهَى من الغرفة وقلبها ينبض بسرعة، ويداها ترتجفان. لم تكن تعرف ما تفعل. لم تكن تعرف إن كان هذا هو المرض، أم الأدوية، أم شيئاً آخر لا تستطيع فهمه. لكنها عرفت شيئاً واحداً: أختها لم تعد كما كانت. كانت هناك امرأةٌ أخرى تتحدث من خلالها، تكتب بيدها، تنظر بعينيها.

في ذلك المساء، بينما كانت نُهَى تحضر العشاء في المطبخ، سمعت صوت سُهَى يأتي من غرفة الجلوس. كانت تتحدث، لكن صوتها كان مختلفاً. أعمق قليلاً، وأكثر نعومةً، كصوت امرأةٍ أخرى تتحدث من بعيد.

اقتربت نُهَى من باب غرفة الجلوس، ونظرت من الشق الضيق. رأت سُهَى واقفةً أمام النافذة، تنظر إلى المطر، ويداها ممدودتان كأنها تستقبل شيئاً غير مرئي. كانت تهمس بكلماتٍ لا تستوعبها نُهَى

"تعالي... تعالي... النافذة مفتوحة... الجوهرة تنتظر"...

ارتجفت نُهَى وانسحبت بهدوء، وعادت إلى المطبخ وهي تحاول أن تتنفس ببطء. أغلقت عينيها، وتمتمت بصوتٍ خافت: "يا الله... يا رب... ماذا يحدث لها؟"

وقفت هناك، تحضن نفسها، وتشعر بأن شيئاً ما ينهار في داخلها، شيءٌ كانت تبني عليه كل صبرها وتضحيتها. لم تكن تخاف من مرض أختها، لأن المرض كان معروفاً، له علاج، له أطباء، له أمل. لكن هذا... هذا كان مختلفاً. هذا كان غيباً، شيئاً لا تستطيع مكافحته بالدواء أو بالعناق.

في اليوم التالي

خرجت نُهَى في الصباح لشراء بعض الحاجيات، تاركةً سُهَى نائمةً في غرفتها. وعند عودتها، وجدت الشقةَ هادئةً بشكلٍ مريب. دخلت بهدوء، واتجهت إلى غرفة سُهَى. وجدتها جالسةً على الأرض، محاطةً بأوراقٍ متناثرة، ترسم عليها صوراً بقلم الرصاص. كانت ترسم بسرعةٍ مذهلة، كأن يدها تطيع إرادةً غير إرادتها.

"سُهَى..." نادتها نُهَى بصوتٍ خافت، خائفةً من أن تزعجها.

رفعت سُهَى رأسها، ونظرت إلى أختها بعيونٍ زجاجية، كأنها لا تراها حقاً. "انظري يا نُهَى"، قالت، ورفعت إحدى الأوراق. "هذا هو القصر. قصر جَوَاهِر".

نظرت نُهَى إلى الرسم. كان رسمًا متقناً لقصرٍ قديمٍ ذي أقواسٍ وزخارفٍ عربيةٍ أصيلة، ونوافذَ ضيقةٍ تطل على بحرٍ هائج. في إحدى النوافذ، كانت هناك امرأةٌ صغيرة، ترتدي فستاناً طويلاً، وتبدو وكأنها تنظر إلى الهاوية.

"سُهَى، هذا... هذا ليس مكاناً حقيقياً. هذا مجرد رسمٍ من خيالكِ".

"لا"، قالت سُهَى بحزمٍ غريب. "هو حقيقي. رأيته في المنام. أراه كل ليلة. جَوَاهِر كانت تعيش هنا، في هذا القصر، بجوار البحر. وكانت جميلةً، يا نُهَى. جميلةٌ جداً".

ثم نظرت سُهَى إلى أختها، وابتسمت ابتسامةً حزينة. "أتعلمين؟ أعتقد أنها كانت وحيدةً هناك. مثلي تماماً. وحيدةٌ، لا أحد يزورها، ولا أحد يسمع صراخها".

ارتجفت نُهَى، وجلست على الأرض بجانب أختها، وأخذت يدها برفق. "أنتِ لستِ وحيدة، سُهَى. أنا معك. دوماً. هذا مجرد حلم، حبيبتي. مجرد حلم. سنتجاوزه معاً".

لكن سُهَى سحبت يدها بهدوء، ونظرت من النافذة، وقالت بصوتٍ هادئٍ بارد: "أنتِ لا تفهمين، يا نُهَى. هذا ليس حلماً. هذا... هذا شيءٌ آخر".

وقفت، تاركةً نُهَى جالسةً على الأرض، تحيط بها رسومٌ لقصرٍ قديم، وامرأةٍ وحيدة، وبحرٍ هائج، وشعرٍ أسودَ يتطاير في الريح.

في تلك اللحظة، عرفت نُهَى أن شيئاً ما قد تغير في أختها، وأن ما يحدث لم يعد مجرد مرض، لم تعد مجرد كوابيس. كان شيئاً آخر. شيئاً غريباً، مظلماً، وشريراً.

.....

الفصل الخامس: أصوات الليل

كانت الليلة ماطرةً وباردةً. تتساقط قطرات المطر على نافذة غرفة نُهَى بإيقاعٍ ثابتٍ ممل، كأن الزمن نفسه قد توقف عند تلك النقطة. كانت نُهَى مستلقيةً على سريرها، تحدق في سقف الغرفة المظلم، وعيناها مفتوحتان

على اتساعهما، تفكر في أختها، في تلك الكلمات التي كتبتها، في تلك الرسوم التي رسمتها، في تلك النظرة الغريبة التي رأتها في عينيها.

لم تستطع النوم. كانت كلما أغمضت عينيها رأت وجه سُهَى وهو يقول: "ربما كنتُ جَوَاهِر في حياةٍ أخرى." كانت تلك الكلمات تلاحقها كظلٍّ لا يغادر.

ثم سمعت الصوت.

كان صوتاً خافتاً في البداية، كهمسٍ بعيدٍ يختلط بصوت المطر. جلست نُهَى على سريرها، وأصغت. كان الصوت يأتي من غرفة سُهَى، من الجهة المقابلة للممر. نهضت بهدوء، واتجهت نحو باب غرفتها، وفتحته برفق، ووقفت في الممر المظلم، تستمع.

كان صوت سُهَى يتحدث، لكنه ليس صوتها. كان أعمق، أكثر نعومةً، كصوت امرأةٍ أخرى تتحدث من بعيد، كأنها تغني في ليلٍ قديم.

اقتربت نُهَى بخطواتٍ خفيفة، تمشي على رؤوس أصابعها، تحاذر من إحداث أي ضجة، حتى وصلت إلى باب غرفة سُهَى، الذي كان موارباً. نظرت من الشق الضيق، ورأت أختها نائمةً على سريرها، وجهها شاحبٌ. كانت باروكتها على رأسها، ساكنةً كالليل، لكن شفتيها كانتا تتحركان.

كانت تتحدث.

"سأفعلها... سأتركها تدخل... سأمنحها جسداً جديداً"...

همست سُهَى بصوتٍ غريب، صوت امرأةٍ كبيرة، صوت مليء بالألم والرغبة معاً.

ثم تغير صوتها قليلاً، كأنها تحاور أحداً غير مرئي" .**أتعلمين؟ كانت جميلةً جداً. شعرها كان أسودَ كالليل، وعيناها كالجمر. لكنها ماتت. ماتت وحيدةً، ولم يبكِ عليها أحد".**

صمتت للحظة، ثم تنهدت تنهيدةً ثقيلةً كأنها تحمل كل أحزان الدنيا.

"لكنني هنا الآن. وسأعيش مجدداً. عبر هذه الجسد. عبر هذا الشعر".

ارتجفت نُهَى في مكانها، وشعرت بأن ركبتيها تخذلانها. أرادت أن تدخل، أن تهز أختها، أن تصرخ في وجهها، لكن جسدها لم يطعها. كانت واقفةً كالتمثال، تحدق في الظلام، وتسمع صوتاً ليس صوت أختها يتحدث من حلقها.

ثم سمعت شيئاً آخر. ضحكة.

ضحكة سُهَى، لكنها ليست ضحكتها. ضحكة امرأةٍ أخرى، ضحكة شريرة، مليئة بالغبطة والانتصار. ضحكةً تملأ الغرفة كأنها دخانٌ أسود.

"قريباً... قريباً جداً"...

عندها، استعادت نُهَى قواها. دفعت الباب بقوة، ودخلت الغرفة، وأشعلت الضوء فجأة. أضاءت الغرفة بضوءٍ أبيض قاسٍ، وكشفت عن سُهَى نائمةً على سريرها، هادئةً كالملاك، وباروكتها على رأسها، وشفتاها مغلقتان، كأنها لم تنطق بكلمةٍ واحدة طوال الليل.

وقفت نُهَى في منتصف الغرفة، تلهث، تنظر إلى أختها التي لم تتحرك، ولم تفتح عينيها. كان كل شيء هادئاً، كأن ما سمعته كان مجرد هلوسةٍ من التعب وقلة النوم.

"سُهَى... سُهَى... هل أنتِ مستيقظة؟"

لم ترد سُهَى. كانت نائمةً بعمق، كمن ينام بعد رحلةٍ طويلة.

جلست نُهَى على حافة السرير، ونظرت إلى وجه أختها النائم، إلى شعرها الأسود الذي يغطي الوسادة كأنه بحرٌ من الظلام. رفعت يدها ببطء، ولمست خصلةً من شعر الباروكة. كانت باردةً كالجليد، رطبةً كأنها عرقت، أو كأنها خرجت لتوها من ماءٍ بارد.

همست نُهَى بصوتٍ خافت: "ما بكِ يا سُهَى؟ ما الذي يحدث لكِ؟"

في تلك اللحظة، تحركت سُهَى في نومها. تحركت شفتاها، وهمست بكلمةٍ واحدة، بكلمةٍ جعلت قلب نُهَى يتوقف:

"جَوَاهِر"...

ثم ابتسمت سُهَى في نومها، ابتسامةً عريضةً مرعبة.

خرجت نُهَى من الغرفة ويداها ترتجفان، وقلبها ينبض كطبول الحرب. ذهبت إلى المطبخ، وشربت كوباً من الماء البارد، وحاولت أن تتنفس بعمق. لكن الماء لم يطفئ حرارتها الداخلية. وقفت هناك، تنظر من نافذة المطبخ إلى المطر الذي كان يتساقط بغزارة، وتفكر في ما سمعته.

كان الصوت واضحاً. لم يكن كابوساً. لم يكن وهماً. كان صوت أختها، لكنه ليس صوتها. كانت تتحدث عن "جسد جديد"، عن "امرأة جميلة ماتت وحيدة"، عن "العيش مجدداً عبر الشعر."

فجأة، تذكرت الكلمات التي قرأتها في دفتر سُهَى قبل أيام. "يدي تحترق... لكن الشعر يبقى." و"القصر القديم يبكي في الليل".

نظرت نُهَى إلى يديها، وإلى شعرها الذي كان ينسدل على كتفيها. ثم نظرت إلى المطر، وفكرت في الباروكة. تلك الباروكة التي اشترتها من المتجر الغامض في شارع النجمة. تلك الباروكة التي كان صاحبها قد قال عنها إنها "طبيعيةٌ ونادرة."

فجأة، شعرت بقشعريرة تسري في جسدها. "ماذا لو... ماذا لو لم تكن مجرد باروكة؟ ماذا لو كانت... شيئاً آخر؟"

أغلقت عينيها، واسترجعت ذاكرة ذلك اليوم: المتجر الصغير في نهاية الشارع، الرجل العجوز الذي كان يجلس خلف المنضدة، نظراته الغريبة عندما سألته عن الباروكة، الصمت الذي سبق إجابته، ثم قوله بصوتٍ خافت: "إنها باروكةٌ قديمة... تعود لامرأةٍ غجرية. ماتت منذ زمنٍ بعيد".

لم تكن نُهَى قد انتبهت إلى غرابة كلماته حينها. كانت مشغولةً بجمال الشعر، وبالفرحة التي سترسمها على وجه أختها. لكنها الآن تذكرت كل شيء. تذكرت كيف نظر إليها الرجل بعينين زجاجيتين، وكيف همس قائلاً: "اعتني بها... إنها ثمينةٌ جداً".

ثم أضاف، قبل أن تغادر، كلمةً لم تفهمها حينها: "إنها تنتظر".

"عادت نهى من سيل ذكرياتها، تسأل نفسها بصوت خافت: تنتظر ماذا؟"، "تنتظر من؟"

في الصباح، كانت سُهَى طبيعيةً كعادتها. جلست على مائدة الإفطار، تأكل خبزاً بالجبن، وتشرب الشاي، وتحدثت عن الطقس وعن فيلمٍ شاهدته على التلفاز قبل أيام. كانت طبيعيةً جداً، لدرجة أن نُهَى كادت تشك في أنها كانت تحلم الليلة الماضية.

لكنها لم تكن تحلم. كانت تعرف أنها سمعت ما سمعت. كانت تعرف أن صوتاً آخر تحدث من خلال أختها.

وبينما كانت تشرب قهوتها، سألت نُهَى بحذر: "سُهَى... هل تتذكرين شيئاً من الليلة الماضية؟ أي أحلام؟ أي كوابيس؟"

نظرت سُهَى إلى أختها بعيونٍ بريئة، وابتسمت ابتسامتها المعتادة، تلك التي كانت تستخدمها لتخفي خوفها، لكنها لم تخفِ شيئاً هذه المرة. "لا، لم أحلم بشيء. نمتُ كالميت. لماذا تسألين؟"

"لا شيء... فقط مجرد سؤال".

لكن عينا سُهَى لم تكونا بريئتين تماماً. كانت فيهما تلك اللمعة الغريبة التي بدأت نُهَى تلاحظها مؤخراً، تلك اللمعة التي تشبه من يخفي سراً، أو من يخطط لشيءٍ لا تعرفه.

نهضت سُهَى من المائدة، لكنها توقفت للحظة، نظرت إلى نُهَى وقالت بصوتٍ هادئ: "نُهَى... أنتِ قلقةٌ عليّ، أليس كذلك؟"

"طبعاً يا حبيبتي. أنا دائماً قلقةٌ عليكِ".

ابتسمت سُهَى ابتسامةً غامضة، وقالت: "لا تقلقي. أنا بخير. في الحقيقة... أنا أفضل من بخير. أنا أشعر بأنني حيةٌ لأول مرةٍ منذ زمن".

ثم غادرت.

وقفت نُهَى وحدها في المطبخ، تنظر إلى فنجان القهوة الذي لم تكمله، وتفكر في تلك الكلمات: "حيةٌ لأول مرة منذ زمن".

لم تكن تعرف إن كان هذا هو المرض، أم الدواء، أم شيئاً آخر. لكنها عرفت أنها لن تنام تلك الليلة. كانت ستبقى مستيقظةً لتسمع. لترى. لتعرف من الذي يتحدث من خلال أختها.

.....

الفصل السادس: التحقيق

لم تكن نُهَى تنوي الذهاب. كانت تنوي أن تنسى، أن تقنع نفسها بأن ما سمعته في الليل كان مجرد هلوسة، أو كابوس، أو تأثيراً من الإرهاق وقلة النوم. كانت تنوي أن تبتسم لأختها، وتعدّ لها الإفطار، وتخبرها بأن كل شيء على ما يرام.

لكنها لم تستطع.

كانت كلمات الليل تلاحقها كالدم الذي لا يجف: "سأمنحها جسداً جديداً... سأعيش مجدداً عبر الشعر..." كانت تراها كلما أغمضت عينيها، تسمعها كلما سكتت. فعرفت أنها لا تستطيع الهروب من هذا الواقع، وأنها مضطرة لمواجهته، بغض النظر عن مخاوفها.

خرجت في صباح اليوم التالي، وقد تركت سُهَى في المنزل نائمةً بعد ليلةٍ أخرى من الكوابيس التي لم تخبرها بها. كانت نُهَى تحمل في حقيبتها ورقةً صغيرةً كتبت عليها عنوان المتجر الذي اشترت منه الباروكة: "متجر سِرَاج للتحف القديمة – شارع النجمة، الزقاق الخلفي".

كان شارع النجمة بعيداً عن حيها، في منطقةٍ قديمةٍ من المدينة، حيث المباني متداعية، والجدران متشققة، والأزقة ضيقة كأنها شرايين المدينة القديمة المتكلسة. مشت نُهَى بسرعة، تحاول ألا تنظر إلى الوجوه الغريبة التي كانت تطل من النوافذ، أو الكلاب النائمة تحت السلالم، أو الباعة الجائلين الذين كانوا يصرخون بأصواتٍ مبحوحة.

وصلت أخيراً إلى الزقاق الخلفي، وكانت تفوح منه رائحة التراب والخشب القديم والرطوبة. كان متجر سِرَاج موجوداً في نهاية الزقاق، واجهته خشبيةٌ داكنة، ونافذته مغبرةٌ جداً لدرجة أنها لا تكاد تسمح برؤية ما بداخلها. لكن الأهم من ذلك، كان باب المتجر مغلقاً، وعليه لافتةٌ صغيرة مكتوب عليها بخطٍ يدوي: "مغلق".

وقفت نُهَى أمام الباب، تنظر إليه، وتشعر بخيبة أملٍ كبيرة. لم تكن متأكدةً مما كانت تأمل أن تجده، لكنها لم تتوقع أن تجد الباب مغلقاً.

توجهت إلى الدكان المجاور، حيث كان رجلٌ عجوز يجلس على كرسي خشبيّ أمام محله، يدخن سيجارةً طويلة ويقرأ جريدةً بالية. اقتربت منه نُهَى وسألته بصوتٍ خائف: "عفواً... هل تعرف متى يفتح هذا المتجر؟ متجر سِرَاج؟"

رفع الرجل عينيه ببطء، ونظر إليها بفضولٍ واضح. ثم أطفأ سيجارته على الأرض، وقال بصوتٍ أجش: "سِرَاج؟ رحل. منذ حوالي شهرين. أغلق المحل وذهب. لا نعرف إلى أين".

"رحل؟" كررت نُهَى بصوتٍ مبحوح، وشعرت بقلبها يغوص في صدرها. "لكنني اشتريت منه باروكةً منذ أسابيع قليلة. كيف يكون رحل؟"

هز الرجل كتفيه بلا مبالاة. "ربما كنتِ آخر زبائنه. خرج من هنا في ليلةٍ ما، وأغلق الباب، ولم يعد. قيل أنه مرض، وقيل أنه هرب، وقيل... أنه زارته أشياءٌ لا تزور البشر".

ارتجفت نُهَى عند آخر كلمة. "أشياء؟ ماذا تقصد؟"

نظر الرجل إليها نظرةً طويلة، كأنه يقيس مدى استعدادها لسماع الحقيقة. ثم قال بصوتٍ منخفض: "أنتِ التي اشتريت تلك الباروكة، أليس كذلك؟ باروكة الشعر الأسود الطويل؟"

"نعم... كيف عرفت؟"

"لأنك لستِ الوحيدة التي تسأل عنها. كان هناك امرأتان قبلكِ، قبل سنوات، سألتا عنه نفس السؤال.

شعرت نُهَى بالدوار. تمسكت بحافة الحائط لئلا تسقط، وتنفست بعمق. "من فضلك... أخبرني كل ما تعرفه. أنا بحاجةٍ لفهم ما يحدث لأختي".

تنهد الرجل، ونظر إلى السماء الرمادية كأنه يستدعي ذاكرةً قديمة. "سِرَاج... كان غريباً، هذا الرجل. كان يبيع تحفاً قديمة، بعضها يعود لمئات السنين. لكن كانت لديه مجموعةٌ خاصة... باروكات شعرٍ طبيعي. كان يحصل عليها من عائلاتٍ الغجر القديمةٍ، حيث كان الناس يدفنون موتاهم مع أشيائهم الثمينة. وكان في بعض الأحيان... تأتيه باروكاتٌ من نساءٍ ماتن في ظروفٍ غريبة".

توقفت نُهَى عن التنفس. "ماتن في ظروفٍ غريبة؟"

أومأ الرجل برأسه ببطء. "قبل سنوات، كنت أتحدث مع سِرَاج في ليلةٍ ممطرة، وكنت قد شربت معه قليلاً. أخبرني عن باروكةٍ قديمةٍ جداً، قال إنها تعود لامرأةٍ من عائلةٍ نبيلة، كانت تعيش في قصرٍ على شاطئ البحر. اسمها كان... لا أتذكر تماماً... لكنها كانت جميلةً جداً، لدرجة أن الناس كانوا يطلقون عليها اسم الجوهرة".

"جَوَاهِر!" صاحت نُهَى دون أن تشعر، ويداها ترتجفان. "اسمها جَوَاهِر"!

حدق الرجل فيها بدهشة، ثم هز رأسه باستغراب. "كيف عرفتِ؟ نعم... جَوَاهِر. كانت مشهورةً بجمالها وشعرها الأسود الطويل. لكنها ماتت في ظروفٍ غامضة، قبل مئة عامٍ تقريباً. قيل إنها انتحرت، وقيل إنها قتلت، وقيل إنها... لعنت".

"ماذا حصل لها؟" سألت نُهَى بصوتٍ خافت.

"تقول الروايات إنها وقعت في حب رجل، لكنه خدعها وهجرها. وكانت غيورةً إلى حد الجنون. في ليلةٍ ما، أغلقت على نفسها في غرفتها، وقطعت فروة رأسها، ثم... اختفت. لم يعثر على جثتها أبداً. لكن شعرها بقي. ظل الشعر في القصر لعقود، حتى وصل ليد تاجر غجري، ثم انتقل من يدٍ إلى يدٍ، حتى وصل إلى سِرَاج".

سكت الرجل، ونظر إلى نُهَى بعينين حزينتين. "تقول الأساطير إن شعرها يحمل روحها. وإن أي امرأة ترتدي ذلك الشعر تصبح... تصبح وعاءًا لجَوَاهِر. تعيش من خلالها، وتفعل ما فعلته في حياتها".

ارتجفت نُهَى، وشعرت ببردٍ قارس يغزو جسدها. "وهل... هل حدث هذا من قبل؟ هل ارتدت امرأةٌ أخرى هذه الباروكة قبل أختي؟"

نظر الرجل إليها طويلاً، ثم قال بصوتٍ بالكاد مسموع: "امرأتان قبل أختك. كلتاهما اشترتا من سِرَاج. وكلتاهما... ماتتا بعد أسابيعٍ قليلة. انتحرت الأولى، والثانية اختفت من منزلها في ليلةٍ مظلمة، ولم يعثروا عليها إلا بعد أيام... على شاطئ البحر، ترتدي فستاناً أبيض، وشعرها أسودُ ينسدل على وجهها".

سكت نُهَى. كانت عيناها جامدتين، ووجهها شاحباً كالموتى. كانت تفكر في أختها، في سُهَى التي نامت في غرفتها، والتي كانت ترتدي الباروكة الآن، والتي كانت تهمس في الليل باسم جَوَاهِر، وتعدها بأنها ستمنحها جسداً جديداً.

"أختي... ستموت؟" همست نُهَى بصوتٍ مكسور.

نظر الرجل إلى الأرض، وتمتم: "لا أعرف. لكن... إذا كنتِ تريدين إنقاذها، فعليكِ بنزع تلك الباروكة. بأي ثمن. قبل أن تفتن بها روح جَوَاهِر تماماً".

عادت نُهَى إلى المنزل بعد ساعات، وقد أثقلتها المعرفة، كالجبل على صدرها. كانت تخطو ببطء، كمن يحمل نعشاً على كتفيه.

دخلت الشقة في هدوء، لكنها وجدت سُهَى جالسةً في غرفة الجلوس، تنظر من النافذة، وباروكتها السوداء تنسدل على كتفيها كأنها ثعبانٌ نائم.

"أين كنتِ يا نُهَى؟" سألت سُهَى دون أن تلتفت. كان صوتها هادئاً، لكنه كان يحمل نبرةً غريبة، كأنها تعرف شيئاً لا تعرفه نُهَى.

"في... في السوق. اشتريت بعض الحاجيات".

كذبت نُهَى، وهي تعرف أن أختها لن تصدقها. لكن سُهَى لم تعلق، فقط هزت كتفيها برقةٍ غريبة، وقالت بصوتٍ حالم: "سُهَى... هل تعرفين الشعور بأن تكوني جميلةً جداً، لدرجة أن العالم كله يقع عند قدميكِ؟"

توقفت نُهَى عند الباب، ونظرت إلى أختها بقلبٍ يخفق كالطير المحبوس. "لا... لا أعرف، سُهَى".

ابتسمت سُهَى ابتسامةً عريضة، تلك الابتسامة التي لم تكن ابتسامتها. "كنتِ ستعرفين، لو كنتِ مكاني. كنتِ ستعرفين كم هو رائعٌ أن تكوني امرأةً يخاف منها الناس ويعشقونها، ويطلبون ودّها ورضاها في آنٍ واحد".

ثم التفتت إلى نُهَى، ونظرت إليها بعينين براقتين كالنجوم في ليلةٍ مظلمة، وقالت: "لكن لا بأس. ستعرفين قريباً. كل شيء سيكون مختلفاً قريباً".

وقفت سُهَى، وذهبت إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها بهدوء.

ووقفت نُهَى وحدها في غرفة الجلوس، ودمعةٌ تسقط على خدها، وهي تهمس: "سَأُنْقِذُكِ يا سُهَى... ولو كلفني ذلك حياتي".

لكنها لم تكن تعرف بعد كيف. ولم تكن تعرف أن سهى كانت تسمعها من وراء الباب، وكانت تضحك ضحكةً صامتة، لأنها كانت تعرف شيئاً لا تعرفه نُهَى: أن الباروكة لن تُنزع بسهولة. وأن من يرتديها، لا يريد خلعها أبداً.

.....

الفصل السابع: العدوانية

لم تكن نُهَى تعرف متى تحولت أختها إلى امرأةٍ أخرى. لم تكن هناك لحظةٌ محددة، ولا علامةٌ واضحة، ولا إنذارٌ سابق. كان الأمر يتسلل إليها كالسرطان الذي كان ينهش جسدها، ببطء، بصمت، بلا رحمة. لكن الفرق أن هذا السرطان لم يكن في جسدها، بل في روحها.

كانت الأيام التي تلت التحقيق في متجر سِرَاج أياماً عصيبةً على نُهَى. كانت تحاول أن تكون طبيعيةً أمام أختها، أن تبتسم، أن تعدّ الطعام، أن تتحدث عن أمورٍ عادية. لكن سُهَى لم تكن طبيعية. كانت تنظر إليها بعينين غائمتين، كأنها ترى شخصاً آخر، أو كأنها لا تراها أصلاً.

وفي صباح أحد الأيام، دخلت نُهَى غرفة سُهَى لتجدها جالسةً على السرير، تنظر إلى المرآة الصغيرة التي كانت معلقةً على الحائط. لكنها لم تكن تنظر إلى نفسها. كانت تنظر إلى ما وراءها، إلى الظل الذي كان يتحرك خلفها رغم أنها وحدها في الغرفة.

"سُهَى... الإفطار جاهز، هل ترغبين بالنزول للإفطار؟" سألت نُهَى بصوتٍ متردد.

لم ترد سُهَى. فقط رفعت يدها ببطء، ولمست شعر الباروكة، وقالت بصوتٍ خافتٍ غريب: "المرآة لا تكذب. لا تكذب أبداً".

اقتربت نُهَى منها بحذر، وحاولت أن تلمس كتفها. لكن سُهَى التفتت ودفعت يدها بعنف، وقفزت من مكانها كالقطة المذعورة.

"لا تلمسيني! لا تلمسيني بيديكِ القذرتين"!

صاحت سُهَى بصوتٍ عالٍ، وأخذت نُهَى تتراجع إلى الوراء مذعورة. لم تكن قد سمعت أختها تصرخ بهذه الطريقة من قبل. كانت عيناها مشتعلتين، ووجهها محمراً، وباروكتها تموج كأنها أفعى غاضبة.

"سُهَى... أنا فقط"...

"أنتِ فقط ماذا؟ أنتِ فقط تحاولين السيطرة عليّ! أنتِ فقط تغارين مني! لأنني أصبحت جميلةً وأصبحتِ أنتِ قبيحةً ومريضةً في داخلكِ"!

ارتجفت نُهَى، وشعرت بأن كلمات أختها تخترق صدرها كالخناجر. "أنا لا أغار منكِ، سُهَى. أنا أحبكِ. أنا فقط خائفةٌ عليكِ".

"خائفة؟" ضحكت سُهَى ضحكةً عاليةً هستيرية. "أنتِ خائفةٌ من أن أصبح أقوى منكِ، أجمل منك. خائفةٌ من أن أتركَكِ وحدكِ كعادتكِ. لأنكِ كنتِ دائماً الوحيدة، ونحن نعرف ذلك".

دفعت سُهَى كوباً كان على الطاولة الصغيرة بجانبها، فطار الكوب وارتطم بالحائط وتحطم إلى شظايا صغيرة. كانت القوة التي دفعت بها الكوب أكبر من قوة امرأة مريضة بالسرطان، وكأن يداً أخرى كانت تقذفه، كأن جَوَاهِر كانت تغضب من نُهَى أيضاً.

ركضت نُهَى خارج الغرفة، وأغلقت الباب خلفها، ووقفت في المطبخ تلهث، تحاول أن تمنع دموعها من الانهمار. سمعت صوت أختها من وراء الباب، تغني أغنيةً قديمةً بصوتٍ ليس صوتها، بصوتٍ عميقٍ حزينٍ جميل.

"يا جَوَاهِر يا جَوَاهِر... أين ذهبتِ يا جَوَاهِر... النافذة مفتوحة والبحر ينتظر"...

جلست نُهَى على كرسي المطبخ، وأخفت وجهها بين يديها. لم تكن تعرف كيف تنقذ أختها. لم تكن تعرف إن كان هناك خلاصٌ أصلاً. لكنها عرفت شيئاً واحداً: أنها ستفعل كل ما بوسعها، ولو كلفها ذلك حياتها.

في ذلك المساء، نزلت نُهَى إلى الطابق السفلي، وطرقت باب آمال، الجارة التي كانت دوماً مصدراً للنصيحة والدفء. فتحت آمال الباب ووجدتها واقفةً، عيناها حمراوان من البكاء، ووجهها شاحباً كالموت.

" ما بكِ يا ابنتي؟ تعالي، تعالي، اجلسي".

أجلستها آمال على الأريكة، وأحضرت لها كوباً من الشاي الساخن، وجلست بجانبها، تمسك بيدها وتنظر إليها بقلق.

"حدثيني يا نُهَى. ما الذي يزعجكِ؟ هل هي سُهَى؟ هل تفاقم مرضها؟"

هزت نُهَى رأسها، وحاولت أن تتكلم لكن الكلمات كانت تتكدس في حلقها. "ليس المرض... إنه شيءٌ آخر. شيءٌ لا أفهمه. الباروكة... الباروكة التي اشتريتها لها... إنها... إنها مسكونة".

حدقت آمال فيها بدهشة، ورفعت حاجبها باستغراب. "مسكونة؟ ماذا تقصدين، يا بنتي؟"

فاضت نُهَى بالكلام، تروي كل شيء: الكوابيس، الكلمات التي تكتبها بخطٍ غريب، الرسوم التي ترسمها لقصرٍ قديم، الصوت الذي تتحدث به في الليل، اسم جَوَاهِر الذي يتردد كالناقوس، وتحقيقها في متجر سِرَاج، وقصص النساء اللواتي ارتدين الباروكة.

سكتت آمال لحظة، ونظرت إلى نُهَى بعينين مليئتين بالحزن والعطف. ثم قامت من مكانها، وذهبت إلى خزانةٍ خشبيةٍ صغيرة، وأخرجت منها كيساً من القماش الأحمر، وضعته بين يدي نُهَى.

"خذي هذه. إنها تميمةٌ قديمة، كان جدتي تعطيني إياها عندما كنتُ أخاف من العين والحسد. ضعيها تحت وسادة سُهَى، واحتفظي بهذه الخرزة الزرقاء معكِ. قد لا تمنع الشر، لكنها ستخفف منه قليلاً".

نظرت نُهَى إلى التميمة، ثم إلى آمال، وشعرت بالامتنان يغمر قلبها رغم خوفها. "شكراً لكِ يا خالة... لكنني خائفةٌ جداً. خائفةٌ من أن أكون قد جلبتُ الموت إلى بيتنا".

مسحت آمال دموع نُهَى، وقالت بصوتٍ دافئ: "الموت لا يأتي بالباروكات يا ابنتي. الموت يأتي بالقلوب القاسية والأرواح التي ترفض الرحيل. لكننا سنحارب هذا معاً. سنحاربها بالحب، وبالدعاء، وبالتمائم إن لزم الأمر".

همست آمال، وهي تنظر إلى عيني نُهَى المذعورتين: "لكن يا نُهَى، إذا استمرت الأمور على هذا الحال، فقد تضطرين إلى فعل شيءٍ صعب. شيءٍ قد تكرهين نفسكِ عليه".

"ماذا؟" سألت نُهَى بصوتٍ خائف.

"نزع الباروكة. بالقوة. حتى لو صرخت. حتى لو... حتى لو قاومت".

عادت نُهَى إلى الشقة وقد أثقلتها كلمات آمال. وضعت التميمة تحت وسادة سُهَى في غيابها، واحتفظت بالخرزة الزرقاء في جيبها. ثم جلست في غرفتها، تنتظر حلول الظلام، كجنديٍّ ينتظر معركةً لا يعرف إن كان سينتصر فيها أم يموت.

لكن المعركة بدأت قبل أن يحل الظلام.

خرجت سُهَى من غرفتها في المساء، وكانت ترتدي فستاناً أبيضَ طويلاً لم تشتره نُهَى لها، ولا تعرف من أين أتت به. كان فستاناً قديماً، كالذي ترتديه النساء في حفلات العصور الغابرة.

وقفت سُهَى في وسط غرفة الجلوس، تنظر إلى نُهَى بعينين غائمتين، وباروكتها السوداء تنسدل على كتفيها كأنها حريرٌ سائل، وفستانها الأبيض يلمع تحت ضوء المصباح كضوء القمر في ليلةٍ بلا نجوم.

"نُهَى"، قالت بصوتٍ هادئٍ ثقيل. "لقد قررت شيئاً".

"ماذا، سُهَى؟" سألت نُهَى، وقلبها يخفق بسرعةٍ غير طبيعية.

"لن أخلع الباروكة. أبداً".

"لكن سُهَى... أنتِ بحاجةٍ إلى غسل شعركِ، إلى"...

"لا!" صاحت سُهَى، وارتجت الغرفة من صوتها. "لن أخلعها. لن أخلعها أبداً. إنها ليست مجرد باروكة. إنها... إنها أنا".

اقتربت سُهَى من نُهَى، ومدت يدها نحو وجهها، ولمست خدها بأصابعها الباردة.

نفضت سهى يد اختها بعنف وقالت بصوتٍ أصبح فجأةً صوتاً آخر، صوت جَوَاهِر: "لا تحاولي أن تسلبيها مني. إنها ليست لكِ. إنها ليست لأحدٍ قبلكِ. إنها لي. كانت لي، وستبقى لي".

ثم ابتسمت ابتسامةً عريضةً مرعبة، ورفعت يدها، فانطلقت الستائر من خلفها كأن يداً غير مرئية قد لامستها، وسقطت المرآة الصغيرة التي كانت معلقةً على الحائط من دون سبب، وتحطمت على الأرض بشظاياها المتلألئة، وكأنها تريد أن تقول: "أنا هنا، ولن أرحل".

وقفت نُهَى مصدومةً، تنظر إلى شظايا المرآة على الأرض، وإلى أختها التي كانت واقفةً في وسط الغرفة، وثوبها الأبيض يرفرف كعلمٍ لموتٍ قادم.

همست نُهَى بصوتٍ مبحوح: "من أنتِ؟"

فأجابت سُهَى بصوت جَوَاهِر: "أنا الجوهرة التي لا تُنزع. أنا الليل الذي لا يزول. أنا الحلم الذي لا ينتهي".

ثم عاد صوتها إلى صوت سُهَى، وقالت بنبرةٍ طفوليةٍ مريعة: "لا تخافي يا نُهَى. سأكون بخير. سأكون أفضل من بخير. سأكون... جَوَاهِر".

التفتت وذهبت إلى غرفتها، وتركت نُهَى واقفةً في غرفة الجلوس وحدها، محاطةً بشظايا المرآة، وستائر تعود للسكون بعد أن كانت منذ لحظات تموج كالأمواج، وقلبٍ يخفق كأنه يريد الخروج من صدرها، وهي تهمس: "يا الله... مالذي أتيتُ به إلى بيتنا؟"

.....

الفصل الثامن: النزاع الأول

كانت الأيام التي تلت تلك الليلة التي تحطمت فيها المرآة كالجحيم على نُهَى. كانت تعيش في شقةٍ أصبحت غريبةً عنها، في منزلٍ لم يعد منزلها. كانت سُهَى تخرج من غرفتها في أوقاتٍ غريبة، تتجول في الممرات كشبحٍ يرتدي ثوباً أبيض، تهمس بكلماتٍ لا تفهمها نُهَى، وتضحك ضحكاتٍ قصيرةً مرعبة كمن يسمع نكاتٍ لا يسمعها أحدٌ غيره.

وكانت الباروكة لا تفارق رأسها. نامت بها، استيقظت بها، أكلت بها، حتى وهي تستحم كانت تضعها وتضع كيسٍ بلاستيكي على رأسها كي لا تبتل الباروكة. كانت الباروكة جزءاً من جسدها، كأنها نمت في فروة رأسها، كأنها أصبحت جلدها الثاني.

وفي إحدى الليالي، عندما كان المطر يتساقط بغزارةٍ على نافذة غرفة نُهَى، قررت نُهَى أن تفعلها. كانت تعلم أنها لن تنام، كانت تعلم أن الوقت قد حان لمواجهة الشر وجهاً لوجه، أو الموت في سبيل ذلك.

نهضت من سريرها في منتصف الليل، واتجهت إلى غرفة سُهَى بخطواتٍ حازمةٍ لكن قلبها كان يرتجف كعصفور. دفعت الباب برفق، ودخلت الغرفة بهدوء.

كانت سُهَى نائمةً على ظهرها، وباروكتها السوداء تنسدل على الوسادة كأنها بحرٌ من الظلام. كان وجهها هادئاً، كوجه طفلةٍ بريئة، لكن شفتيها كانتا تتحركان في نومها، تهمسان بكلماتٍ غير مفهومة.

جلست نُهَى على حافة السرير، ونظرت إلى أختها للحظة، وشعرت بألمٍ يغمر قلبها. "سُهَى... حبيبتي... سامحيني".

رفعت يدها المرتجفة نحو رأس سُهَى، ولمست خصلةً من شعر الباروكة. كانت دافئةً هذه المرة، كأنها شعر حي، كأنها تتنفس تحت أصابعها. شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، لكنها لم تتراجع. أمسكت بالباروكة من أطرافها، وبدأت تسحبها برفق.

وفي تلك اللحظة، انفتحت عينا سُهَى فجأةً. كانت عينان سوداوتان، لا تحملان أي أثرٍ لسُهَى. كانت عينا جَوَاهِر.

"ماذا تفعلين؟" همس صوت سُهَى، لكنه لم يكن صوتها. كان صوت جَوَاهِر، عميقاً، بارداً، كريح تهب من قبرٍ قديم.

ارتجفت نُهَى، لكنها لم تفلت الباروكة. "سأنزعها. سأنقذ أختي منكِ".

ضحكت ضحكةً طويلةً مرعبة، ثم جلست على السرير بسرعةٍ خاطفة، ودفعت نُهَى بقوةٍ هائلة. طارت نُهَى إلى الخلف وارتطمت بالحائط بقوةٍ جعلت رأسها يدور، وأحست بألمٍ حادٍ في كتفها.

صرخت نُهَى من الألم، لكنها نهضت بسرعة، وعيناها مثبتتان على أختها التي كانت واقفةً الآن في منتصف الغرفة، وثوبها الأبيض يتلألأ تحت لمعات البرق المتفرقة المتسللة من النافذة، وباروكتها تموج كأنها أفعى تنفث سمها.

"لن تخلعيها"، قالت جَوَاهِر بصوت سُهَى لكن بنبرتها. "إنها ليست لكِ. إنها لي. كانت لي وستبقى لي".

"اتركي اختي، دعيها وشأنها!" صاحت نُهَى، وتقدمت نحو أختها، وحاولت الإمساك بالباروكة مجدداً. لكن سُهَى كانت أسرع. أمسكت بذراع نُهَى ولفتها بعنف، وألقتها على الأرض، ثم وقفت فوقها، تنظر إليها بعينين سوداوين متقدتين.

"أنتِ تحاولين إنقاذها؟" همست، وهي تنحني فوق نُهَى. "لكنها لا تريد الخلاص. هي تريدني. هي تريد أن تكون مثلي. جميلةً، قويةً، خالدةً".

"كذبتِ!" صرخت نُهَى، وهي تحاول التحرر. "إنها مريضةٌ وخائفةٌ، وأنتِ تستغلين ضعفها"!

"الضعف؟" ضحكت. "الضعف هو ما جعلها تقبلني. الضعف هو ما جعلها تفتح قلبها لي. أنا لستُ عدوها. أنا خلاصها".

ثم تراجعت خطوةً إلى الوراء، وتركت نُهَى تتنفس بصعوبة، لكنها وقفت في وسط الغرفة، ورفعت يديها إلى السماء كأنها تتعبد لإلهٍ ما، وقالت بصوتٍ عالٍ: "انظري يا نُهَى. انظري إلى جمالي. انظري إلى شعري. انظري إلى ما أصبحت عليه أختك".

وفجأة، رأت نُهَى شيئاً مرعباً. رأت ظلاً خلف أختها، ظل امرأةٍ طويلةٍ ذات شعرٍ أسود، ترتدي ثوباً أبيض، ووجهها شاحبٌ، وعيناها سوداوان كالجحيم. كانت جَوَاهِر تقف خلف سُهَى، تنظر إلى نُهَى بنظرةٍ ساخرة، كمن يشاهد مأساةً لا تخصه.

صرخت نُهَى من الرعب، وزحفت إلى الوراء على يديها وركبتيها، وهي تنظر إلى الظل الذي كان يتحرك كأنه حي، كأنه روحٌ حقيقيةٌ خرجت من الباروكة لتتجلى أمامها.

"رأيتها..." همست نُهَى. "أراها... إنها هنا... إنها"...

"نعم"، قالت جَوَاهِر عبر حلق سُهَى، وهي تبتسم ابتسامةً عريضةً مرعبة. "أنا هنا. كنتُ هنا منذ البداية. وها أنذا الآن أظهرُ لكِ حقيقتي. فهل تخافين؟"

وضعت سُهَى يدها على شعرها، ورفعت خصلةً منه كأنها تقدمها لنُهَى، وقالت بصوتٍ غامض: "ها هو شعري. ها هو جمالي. ها هو مصيركِ لو وقفتِ في طريقي".

ثم تحول وجه سُهَى فجأةً، وعاد إليه تعبيرها الطفولي البريء. نظرت إلى نُهَى بعينين حائرتين، وقالت بصوتها الطبيعي: "نُهَى... ماذا تفعلين على الأرض؟ لماذا تبكين؟"

ثم استدارت سُهَى ببطء، وذهبت إلى سريرها، ونامت كأن شيئاً لم يكن.

ظلت نُهَى جالسةً على الأرض لساعات، تحدق في الظلام، وترى ظل جَوَاهِر يتلاشى ببطء كالدخان، لكنه لا يختفي تماماً. كانت تعرف الآن أنها ليست وحدها في هذه الشقة. كانت تعرف أن هناك روحاً تعيش بين جدرانها، تتنفس مع سُهَى، وتضحك معها، وتبكي معها.

قفزت نُهَى أخيراً، وذهبت إلى المرآة المعلقة في الممر. وقفت أمامها، تنظر إلى انعكاسها الشاحب، وتقول بصوتٍ مرتجف: "أيتها الروح الملعونة... جَوَاهِر... اسمعيني. اتركي أختي. خذيني أنا بدلاً عنها. أنا أقوى، أنا أصلب. خذيني واتركيها".

لكن المرآة لم تجبها. لم ينعكس فيها سوى وجهها بعينيها المذعورتين.

فجأةً، رأت شيئاً خلف انعكاسها. رأت امرأةً أخرى تقف خلفها في المرآة، تبتسم لها ابتسامةً باردة، وتمد يدها نحو كتفها.

التفتت نُهَى بسرعة، لكن لم يكن هناك أحد.

عادت تنظر إلى المرآة، ولم يكن هناك أحدٌ أيضاً.

لكنها سمعت صوتاً، همس في أذنها" :**لن آخذكِ. أنتِ لستِ جميلةً بما يكفي. سأبقي مع جَوَهرتي الصغيرة".**

ضحك الصوت، ثم تلاشى في الظلام، تاركاً نُهَى وحدها أمام المرآة، تمسح دموعاً لا تنتهي، وتهمس بصوتٍ مكسور: "سأقاتلكِ يا جَوَاهِر. حتى آخر قطرةٍ من دمي".

.....

الفصل التاسع: كشف السر

استيقظت نُهَى في صباح اليوم التالي، أحسّت بجسدها وكأنه مُحطّم. كان كتفها الأيسر يؤلمها ألماً حاداً كلما حرّكته، وظهرها كان مزرقاً من ارتطامه بالحائط في الليلة الماضية. لكن الألم الجسدي لم يكن شيء مقارنةً بالألم الذي كان يعتمل في صدرها. خرجت من غرفتها بتثاقل، وتطلعت نحو باب غرفة سُهَى، الذي كان ما يزال مغلقاً، كأنه بابٌ لمقبرةٍ لا يرغب أحدٌ في فتحها.

صبّت لنفسها كوباً من الماء البارد، وجلست على طاولة المطبخ، تحدق في الفراغ. كانت تفكر فيما رأته: ذلك الظل، تلك المرأة السوداء التي وقفت خلف أختها، تلك النظرة الساخرة التي أطلقتها عليها. كانت تفكر في صوت جَوَاهِر الذي همس في أذنها: "لن آخذكِ... أنتِ لستِ جميلةً بما يكفي." شعرت بغضبٍ عارم يغمرها، خليطاً من الغضب والألم والعجز.

ثم نظرت نحو رف الكتب الصغير في زاوية المطبخ، حيث وضعت دفتر سُهَى قبل أيام. كان دفتراً صغيراً، غلافه من الجلد البني الغامق، وقد ملأته سُهَى برسومها الغريبة وكلماتها المتناثرة. لم تكن نُهَى قد قرأته كاملاً من قبل، كانت قد تصفحته فقط، ورأت ما يكفي لإخافتها. لكنها عرفت اليوم أنها بحاجةٍ إلى أن تعرف كل شيء. كانت بحاجةٍ إلى فهم عدوتها لكي تستطيع هزيمتها.

أخذت الدفتر بيدين مرتجفتين، وجلست على الأريكة في غرفة الجلوس، وفتحت الصفحة الأولى.

كانت الصفحة الأولى مليئةً برسومٍ دقيقة متقنة لامرأةٍ ذات شعرٍ طويلٍ أسود، تقف أمام نافذةٍ تطل على بحرٍ هائج. كانت المرأة ترتدي فستاناً أبيض، وفي يدها مشطٌ، تنظر إلى البحر بعينين حزينتين كأنها تودعه للأبد.

تحت الرسم، كتبت سُهَى بخطها المعتاد: "رأيتها الليلة. كانت تبكي. سألتها لماذا تبكي، فقالت إن بحر كان قاسياً معها".

قلبت نُهَى الصفحة. كانت الصفحة التالية مليئةً بكلماتٍ مبعثرة، وكأنها أشعارٌ غير مكتملة، أو مونولوغ داخلي لامرأةٍ تعاني:

"كانوا يقولون إني جميلة، لكن الجمال لم يحمِني من الغدر".

"شعري كان تاجي، وكان قيدي".

"في الليلة التي هجرني فيها، قطعت فروة رأسي، ونظرت إلى شعري طويلاً. كان كالليل، كالموت، كالحب الذي يقتل".

"ثم مشيت إلى النافذة. كان البحر يئن كقلبي".

"الباروكة ليست باروكة، هي ذاكرة. هي أنا".

ارتجفت نُهَى، وأغمضت عينيها للحظة. كانت تفهم الآن: هذه الكلمات ليست لسُهَى. إنها لجَوَاهِر، تنطق من خلال يد سُهَى، وتكتب مأساتها حرفاً حرفاً.

قلبت الصفحة، وهذه المرة وجدت قصةً كاملة، مكتوبةً بخط أكثر وضوحاً وجمالاً، وكأنها قصةٌ تُروى بلسان راوٍ قديم:

حكاية جَوَاهِر

في زمنٍ مضى، على شاطئ بحرٍ هائج، كان يقف قصرٌ أبيض كالقمر. كان يسكنه رجلٌ ثريٌّ وزوجته، وابنتهما الوحيدة التي كانت أجمل فتاة في تلك النواحي. كان اسمها جَوَاهِر، لأنها كانت جوهرةً نفيسةً بين بنات المدينة.

كان شعرها أسودَ كالليل، طويلاً كأغصان الصفصاف، ناعماً كالحرير. كانت ترعاه كأنه طفلها، تغسله بماء الورد، وتمشطه بمشطٍ من عاج، وتلفه بشرائط من ذهب. وكانت النساء تغار منها، والرجال يعشقونها، وهي لا تمنح قلبها لأحد.

لكنها منحته يوماً لرجلٍ غريب، جاء من المدينة البعيدة، كان وسيماً فاتناً، يتحدث كالشعراء، ويمشي كالأمراء. أحبته جَوَاهِر حباً أعمى، وفتحت له قلبها وقصرها، وأعطته كل ما تملك. وكان هو يأخذ كل شيءٍ بلا شكر، ويعدها بالزواج، ويماطل في وعوده.

عاندت والداها، تمسكت به، غضب والداها ولم يستطيعا التمسك بالحياة، كان الموت أقرب لهما.

زارها الحزن ضيفًا ثقيلاً، وجلسَ في أعماق روحها كملكٍ متوج على عرش الألم. أحالَ جمالها إلى شيءٍ آخر، إلى لوحةٍ باهتةٍ رسمتها يدٌ متعبةٌ بألوان الشفق المحتضر.

وتحولتْ عيناها، بحراهما اللذان كانا يموجان بالدفء، إلى بركتين راكدتين من ماءٍ باردٍ، تفقدان بريقهما كأن ضوءاً قد خرجَ منهما إلى الأبد. أما بشرتُها التي كانت تشعُّ كالقمر، فقد أصبحتْ شاحبةً كوجهِ الموتى، كأن الدماءَ قد هجرتْ عروقها، وتركتْها جسداً يعيشُ بالعاداتِ لا بالحياةِ.

وفي ليلةٍ من ليالي الخريف، حين كان البحر يضج بالأمواج، أخبرها أنه سيغادر. قال لها: "جَوَاهِر، أنتِ جميلةٌ جداً، لكن الجميلات كالورود، تذبل سريعاً. وأنا لا أحب الورود الذابلة.

انهار قلب جَوَاهِر. لم تبكِ، ولم ترجُه، ولم تضربه، بل نظرت إليه طويلاً، نظرة تلا تحمل اي دلالة.

ضحك الرجل وهجرها، لكن جَوَاهِر لم تنسَ.

في تلك الليلة، وقفت أمام المرآة، وقطعت شعرها من الجذور، من فروة رأسها، وهي تهمس باسم بحر، الرجل الخائن، وتمد له اللعنات. كانت دموعها تسيل على شعرها كأنها أمطار الجحيم، وكانت كل خصلةٍ تسقط على الأرض كصرخةٍ مكتومة.

ثم مشت إلى النافذة التي تطل على البحر، وألقت بنفسها في الهاوية، لكن شعرها لم يغرق معها. بقي على حافة النافذة، تلتقطه الريح، وتضعه الأمواج على الشاطئ، كأنه رسالةٌ لم تُقرأ.

مرت السنون، وانتقل الشعر من يدٍ إلى يد، من امرأةٍ إلى أخرى، وكل من ارتدته شعرت بقوتها وبجمالها، ثم فقدت عقلها، ثم ماتت موتةً غريبة. حتى جاء سِرَاج، التاجر العجوز، فاشتراه، ووضعه في متجره، مسمياً إياه "باروكة الجوهرة السوداء".

وذات يوم، جاءت نُهَى واشترته لأختها المريضة.

وها هو الشعر يعود إلى الحياة.

أغلقت نُهَى الدفتر، وكانت دموعها تتساقط على صفحاته كأنها تمطر من داخلها. كانت تعرف الآن القصة كاملة. كانت تعرف لماذا كانت جَوَاهِر غاضبةً وحزينة، ولماذا كانت تسعى للانتقام، ولماذا اختارت سُهَى. كانت تعرف كل شيء.

نهضت من مكانها، وذهبت إلى غرفة سُهَى، وطرقت الباب برفق.

"سُهَى... سُهَى، هل أنتِ مستيقظة؟"

سمعت صوتاً خافتاً من الداخل: "ادخلي يا نُهَى".

دفعت الباب، ودخلت الغرفة. كانت سُهَى جالسةً على السرير، وقد بدت شاحبةً مرهقة، وعينيها حمراوان كأنها كانت تبكي طوال الليل. لكن عينيها كانتا عيني سُهَى، وليس عيني جَوَاهِر. كانت واعيةً هذه المرة.

"سُهَى... أنتِ هنا؟ أنتِ حقاً هنا؟"

ارتجفت سُهَى، ومدت يديها نحو نُهَى، وبكت بصوتٍ مكتوم. "نُهَى... أنا خائفةٌ جداً. هي هنا طوال الوقت. أسمعها في رأسي. تهمس لي، تضحك عليّ، تقول لي إنني سأموت قريباً، وإنها ستعيش من خلالي. أحاول مقاومتها، لكنني ضعيفةٌ جداً".

احتضنتها نُهَى بقوة، وشعرت بجسد أختها يرتجف. "لا تخافي، سُهَى. أنا هنا. سأحميكِ. عرفت الآن من هي، وعرفت ماذا تفعل. سأنقذكِ".

"كيف، يا نُهَى؟ إنها أقوى مني. أقوى منا جميعاً. أرى أشياءً لا أستطيع تفسيرها. أسمع أصواتاً لا يستطيع أحدٌ غيري سماعها. هي في كل مكان: في المرآة، في الستائر، في الوسادة، في شعري".

نظرت نُهَى إلى سُهَى بعينين مثبتتين، وقالت بصوتٍ حازم: "سأنزعها عن رأسكِ ولو قتلتني. سأحرقها، وسأرمي رمادها في البحر. وستتحررين".

ارتجفت سُهَى، ونظرت إلى أختها بخوفٍ كبير. "لكنها قالت لي إنني سأموت إذا خلعت الباروكة. قالت إنها أصبحت جزءاً مني، وإن روحي مرتبطةٌ بشعرها".

"هي تكذب، سُهَى. هي تكذب لتخيفكِ. لا تصدقيها".

لكن في تلك اللحظة، تغير وجه سُهَى فجأةً. انطفأت عيناها، وانحنت شفتاها بابتسامةٍ باردة، وارتفع صوتها فجأةً بصوت جَوَاهِر: "لكنها لا تكذب، يا نُهَى. انظري إلى أختك. انظري إلى عينيها. لقد أصبحتا عينيّ. إنها ليست سُهَى بعد الآن. إنها جَوَاهِر".

تراجعت نُهَى إلى الوراء، ونظرت إلى أختها التي كانت تنظر إليها بعيني جَوَاهِر السوداوين، وقلبها ينبض كالطبول.

"سأنزعها، جَوَاهِر. سأنزعها غداً. سأنزعها عن رأسها".

ضحكت جَوَاهِر ضحكةً طويلةً صاخبة. "حاولي. لكن تذكري: حين تنزعيها، ستموت سُهَى معها. وستعود الباروكة، لتجد ضحيةً جديدة".

صرخت نُهَى بأعلى صوتها: "اسكتي! اسكتي يا أيتها الروح الشريرة! لن تموت سُهَى! سأجد طريقةً لأنقذها، وسأخلصها منكِ، مهما كلفني ذلك"!

ثم عاد صوت سُهَى فجأةً، وصاحت بألمٍ شديد: "نُهَى، أرجوكِ... لا تنزعيها. أنا خائفةٌ من الموت. خائفةٌ جداً".

ثم عاد صوت جَوَاهِر: "اسمعيها. إنها تريد البقاء معي. إنها تختارني".

تداخل الصوتين معاً، صوت جواهر المتوعد، وصت سهى الباكي المتوسل. وسُهَى جالسةٌ على سريرها، تبكي وتضحك في آنٍ واحد، وكأن جسدها أصبح ساحة معركةٍ بين روحين، وكأنها تتمزق من الداخل.

ركضت نُهَى خارج الغرفة، وأغلقت الباب، وانهارت على الأرض في الممر، تبكي بلا صوت، وتهمس: "سأنقذكِ يا سُهَى... سأنقذكِ ولو متُّ في سبيل ذلك".

لكنها لم تكن تعرف كيف. وكلما فكرت في الأمر، كلما شعرت بأن جَوَاهِر كانت على حق: أن سُهَى قد تكون ماتت فعلاً، وأنها تقاتل الآن لإنقاذ جسدٍ فارغ.

.....

الفصل العاشر: المواجهة

كانت الريح تعصف خارج النافذة كأنها تريد اقتحام الشقة، والأمطار تتساقط بغزارةٍ كأن السماء تذرف دموعها على ما سيحدث. كانت نُهَى واقفةً أمام باب غرفة سُهَى، وفي جيبها عودُ ثقابٍ واحد، وفي قلبها عزيمةٌ لا تلين.

كانت تعلم أن هذه قد تكون ليلتها الأخيرة، أو ليلة أختها الأخيرة، لكنها كانت تعلم أيضاً أنها لا تستطيع الاستمرار على هذا النحو. لا يمكنها أن تترك سُهَى تعيش بهذا الشكل، شبحاً يمشي بين الأحياء، جسداً تسكنه روحٌ غريبة.

دفعت الباب.

كانت الغرفة مظلمةً بالكامل، ولم يكن فيها أي ضوء سوى ومضات البرق التي كانت تتسلل من النافذة بين الحين والآخر. جلست سُهَى على السرير، تنظر إلى الباب بعينيها السوداوين، وكأنها كانت تنتظر نُهَى.

"جئتِ"، قالت سُهَى بصوت جَوَاهِر، بارداً، عميقاً، كأنه قادمٌ من قاع البحر.

"جئت"، قالت نُهَى بصوتٍ هادئٍ حازم، وهي تتقدم نحو أختها.

"لتنزعيها؟" ضحكت جَوَاهِر ضحكةً طويلةً مليئةً بالسخرية. "لقد أخبرتكِ أنها لن تُخلعها. لن تخلعها أبداً. ستصبح سُهَى أنا، وسأصبح أنا سُهَى. وسنعيش معاً إلى الأبد".

"كذبتِ"، قالت نُهَى وهي تقترب أكثر. "سأخلعها. وستموتين. وستتحرر سُهَى".

قفزت سُهَى من مكانها فجأةً، واقتربت من نُهَى بسرعةٍ خاطفة، وأمسكت بذراعها بقوةٍ خارقة، وكادت أن تحطم عظامها.

"لن تنزعيها!" صرخت جَوَاهِر بصوتٍ مرعب، وصوتها تعدد كأنه ألف امرأة تصرخ في آنٍ واحد. "لن تنزعيها لأن سُهَى لا تريد خلعها! اسأليها! اسأليها الآن"!

وفجأة، تغير وجه سُهَى، وعادت إليها عيناها الطبيعيتان، ونظرت إلى نُهَى بعينين مليئتين بالدموع والألم. "نُهَى... نُهَى، أرجوكِ... ساعديني. هي في داخلي. تؤلمني. لا أريد الموت، نُهَى. لا أريد الموت.

ثم عاد صوت جَوَاهِر: "اسمعيها! إنها تخاف الموت! دعينا نعيش معاً، وسنكون سعيدات"!

صرخت نُهَى بأعلى صوتها: "لا! لن أسمح لكِ بذلك"!

وبقوةٍ لم تعرف أنها تملكها، دفعت نُهَى جسد أختها بعيداً عنها، وتقدمت نحوها، ورفعت يديها إلى رأسها. أمسكت بالباروكة من أطرافها، وبدأت تسحبها بكل قوتها.

صرخت جَوَاهِر صرخةً مدويةً جعلت النوافذ ترتجف، وبدأت المرايا في الغرفة تتحطم واحدةً تلو الأخرى كأن يداً غير مرئية تحطمها، والنوافذ فتحت بقوة، والستائر تطايرت كالأجنحة المجنونة، ريحٌ عاصفة اجتاحت الغرفة كأن إعصاراً قد حلّ فيها.

"لا تنزعيها!" صرخ صوت جَوَاهِر، لكنه كان هذه المرة صوتاً واحداً، صوت امرأةٍ خائفةٍ تتراجع. "لا تنزعيها أو ستموت سُهَى! ستموت معي"!

لكن نُهَى لم تتوقف. كانت تسمع صوت أختها في رأسها، كان يهمس: "أنقذيني يا نُهَى... أنقذيني..." وكانت تسمع صوت جَوَاهِر يصرخ: "ستموت... ستموت... ستموت"!

وسحبَت، سبحت بكل ما تبقى في جسدها وروحها من قوة.

نزعت الباروكة عن رأس سُهَى، وانقلبت على ظهرها، والباروكة تنفلت من بين اصابعها وتتهادى في الفراغ، ارتجت الغرفة بأكملها كأن زلزال ضربها. سقطت سُهَى على السرير كالجسد الفارغ، وعيناها مفتوحتان، لكنهما فارغتان، كأن الروح قد خرجت منها.

وسقطت الباروكة على الأرض ككتلةٍ من الشعر الميت.

وقفت نُهَى تنظر إلى الباروكة، وهي تتنفس بصعوبة، وعرقها يغطي وجهها. ثم رأت شيئاً يرتفع من تحت الباروكة. دخانٌ أسود، بدأ يتشكل في وسط الغرفة. كانت جَوَاهِر، واقفة أمامها، تنظر إليها بعينين سوداوين مليئتين بالغضب والألم.

"قتلتِني"، قالت بصوتٍ خافت متألم. "قتلتِني".

ارتجفت نُهَى، لكنها لم تتراجع. "أنتِ من قتلتِ نفسكِ. أنتِ من اختارت الانتحار واللعنة. أنتِ من رفضتِ المغادرة".

اقتربت جواهر منها، ومدت يدها نحوها، لكنها لم تستطع لمسها. بدأت تتلاشى، كالدخان الذي تعصف به الريح.

"سأعود"، همست. "سأعود دائماً. أنا في الشعر. أنا في كل خصلة".

ثم تلاشت تماماً، كما لو أن أحداً قد أطفأ شمعةً في ليلةٍ مظلمة.

عم الصمت الغرفة إلا من لهاث نهى.

وقفت نُهَى تتفحص الغرفة بنظرها، نظرت إلى الباروكة الملقاة على الأرض، ثم إلى أختها التي كانت نائمةً على السرير، تتنفس بهدوءٍ كطفلةٍ بريئة. اقتربت منها، ونظرت إلى رأسها. كان هناك بعض الشعر الطبيعي القصير ينمو على فروة رأسها، ضعيفاً، لكنه كان موجوداً. تنفست الصعداء، وشعرت بدمعةٍ تتساقط على خدها.

"سُهَى... حبيبتي... أنتِ حرة الآن".

لكنها عرفت أن الأمر لم ينتهِ بعد. التفتت إلى الباروكة الملقاة على الأرض، وتذكرت كلمات جَوَاهِر الأخيرة: "سأعود. أنا في كل خصلة".

انحنت والتقطت الباروكة من الأرض، وشعرت ببرودتها على يديها. كانت كالجليد، وكأنها تنبض تحت أصابعها. حملتها إلى المطبخ، أشعلت الموقد، فانبعثت منه نارٍ خافتة، وألقت الباروكة في النار.

اشتعلت النار فجأةً ليصل لهيبها السقف، وكأن ما ألقته وقوداً، وارتفع اللهبٌ البرتقاليٌ، وسمعت نُهَى صرخةً خافتةً من النار، صرخة امرأة، صرخة ألمٍ وغضبٍ ويأس. ثم سمعت صوتاً يهمس في أذنها: "سأعود... سأعود دائماً"...

ثم صمت كل شيء.

احترقت الباروكة تماماً، وتحولت إلى رمادٍ أسود، لم يبقَ منها سوى خصلةٍ صغيرةٍ واحدة، لم تحترق بالكامل، كانت متفحمةً جزئياً، سوداء كالفحم.

نظرت نُهَى إلى الخصلة المتبقية، ورفعتها بإصبعين، وفتحت النافذة لتلقي بها في الخارج.

لكن الريح كانت أقوى منها.

قبل أن ترميها، هبت عاصفةٌ قوية، وخطفت الخصلة من يدها، وألقت بها خارج النافذة، حيث تطايرت في الظلام، كأنها طائرٌ أسود يبحث عن وطنٍ جديد.

وقفت نُهَى تنظر من النافذة، وقلبها ينبض، وعيناها تدمعان، وهي تهمس: "هل انتهى الأمر؟ هل انتهى حقاً؟"

دخلت نُهَى غرفة سُهَى مرة أخرى، وجلست بجانب سريرها، ومسحت العرق عن جبينها، وهمست: "سُهَى... استيقظي. لقد خلصتكِ".

فتحت سُهَى عينيها ببطء، وكانت عيناها طبيعيتين، عينيها هي، لا شيء غيرهما. نظرت إلى نُهَى، وابتسمت ابتسامةً خافتة، وقالت بصوتٍ مكسور: "نُهَى... أختي... لقد رأيتها. رأيتها تغادر. رأيتها تصرخ. ثم... ثم شعرت بالحرية".

بكت الأختان معاً، وعانقتا بعضهما كطفلتين صغيرتين، ودموعهما تختلط، وقلوبهما تخفق بإيقاعٍ واحد.

في الخارج، في شوارع المدينة، كانت خصلة الشعر الأسود المتفحمة تطير مع الريح، تمر فوق الأسطح، وتتجاوز النوافذ، وتدور في الأزقة، حتى استقرت أخيراً على عتبة بيتٍ صغير، حيث كانت طفلةٌ صغيرةٌ تنظر من النافذة، تتساءل عن ذلك الشيء الأسود الذي تهادى ببطء على عتبة بابها.

فتحت الطفلة الباب بصعوبة، مدت يدها لتلمس الخصلة، لكن أمها نادتها من الداخل، فتراجعت، وتركت الخصلة هناك، تنتظر يداً أخرى، وروحاً أخرى، وحياةً أخرى.